الإهداء: بحث في عتبات النص

د/ مالكية بلقاسم
جامعة ورقلة(الجزائر)

Résumé :
Dédier un ouvrage produit par son auteur représente un seuil parmi d'autres du texte produit.Ce geste reflète ,en outre ,un indice sémiologique ayant divers significations et dimensions.Le présent article tend à investir ces significations et signifiances qui justifient l'acte de didier un ouvrage,qui devient dans d'innombrables situations un acte reflétant des dimensions métaphysiques ,politiques ,sociales et littéraires.

1– يحدد معجم مقاييس اللغة لمادة (هـ – د – ي) معنيين هما: "أحدهما التقدم للإرشاد والآخر بعثة لَطَف".[1] فإذا فتشنا تحت كل معنى من هذين المعنيين الكبيرين وجدنا معاني جزئية وفرعية كثيرة.[2] والجامع بين هذين المعاني الفرعية هو عملية الاتصال بين طرفين، يقوم أحدهما بتقديم شيء للطرف الثاني، سواء أكان هذا الشيء معنويا رمزيا (الهداية)، أو ماديا (الهدية)، ونحن هنا سنركز على النوع الثاني فإذا قمنا بتحليل المادة اللغوية للهدية كما جاءت في معجم لسان العرب أمكننا تمثيلها في الشكل الآتي:

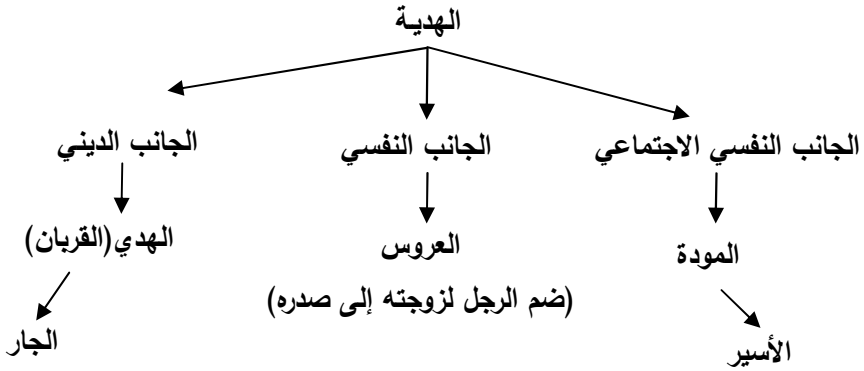

إن هذا الرسم يختصر لنا في إيجاز ودقة المادة اللغوية للهدية ، ويكشف في نفس الوقت نفسه الأبعاد العديدة التي تحملها الهدية ، ليس كظاهرة لغوية فحسب ، بل كظاهرة إنسانية واسعة ، تتناول جوانب عديدة من حياة الإنسان ، إن في جسده ، وإن في مجتمعه، وإن في عقيدته ودينه. وهذه الأبعاد التي تدل على ثراء الظاهرة.

2– وقد شغلت عملية الإهداء جزء مهما من حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم– حيث كان يقبل الهدية، ويحث عليه، وكان يهدي غيره، لأن في هذه العملية إقامة العلاقات اجتماعية متينة ، ذلك أن تستجيب لكون الإنسان محب للخير، وعامل من أجل جلبه لنفسه، فيكون الإنسان الذي يهدي غيره هدايا مختلفة ، إنما يعمل على إشباع هذه الحاجة

الفطرية فيه ، كما أنه يحقق من خلال عمله هذا خلقا من أخلاق الإسلام التي حث عليها الرسول –صلى الله عليه وسلم– وعمل بها العلماء الصالحون من هذه الأمة عبر تاريخها الطويل .

وفي هذا الصدد يعلق الإمام حمد بن محمد الخطابي "قبول النبي –صلى الله عليه وسلم– الهدية نوع من الكرم وباب من حسن الخلق يتألف به القلوب وكان أكل الهدية شعارا له –صلى الله عليه وسلم– وأمارة من أماراته ووصف – صلى الله عليه وسلم– في الكتب المتقدمة بأنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة "[3]

3– وقد اجتهد الفقهاء في المذاهب كلها من أجل وضع أسس لفقه الهدية والهبة، وقد جاء تعرف الهبة عندهم كما يأتي" وهي لغة: تبرع وتفضل بما ينفع، ينفع الموهوب له مطلقا قال تعالي:" فهب لي من لدنك وليا". وقال تعالى:" يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور". وشرعا: تمليك عين بلا عوض أي بلا شرط عوض لأن عدم العوض شرط فيه، لينتقض بالهبة بشروط العوض وتصح بإيجاد وقبول وتتم بالقبض".[4] وهكذا وضع الفقهاء، أصلا للهبة وضبطوا طريقة أدائها وشرط هذا الأداء، فهي عملية تبادل بين طرفين أحدهما هو الواهب، والثاني هو الموهوب له. ولا تتم هذه العملية إلا بدفع الأول للهبة، وقبض الثاني لها، دون انتظار لتقديم عوض عنها. وبالقبض تصبح الهدية ملكا خالصا للموهوب له، يتصرف فيها تصرفا تاما. وقد أضاف بعض الفقهاء شرطا آخر يتمثل في وجود رسول يصل بين طرفي الهبة[5] والغرض من الهبة إما إن يكون محصورا في الدنيا فيما يحقق لصاحبه من ثناء، أو في الآخرة مما يدركه من ثواب عند الله، وبهما معا.[6]

4– وتشمل الهدية والهبة دائرة واسعة من النشاط الإنساني، ومن المجالات التي تشملها العلاقات السياسية سواء الداخلية منها التي تتم بين أعضاء البلد الواحد، والدولة الواحدة. كما أنها تتجاوز هذه الحدود الضيقة لتشمل العلاقات الدولية التي تقوم بين الدول والحكومات، وهي في كل هذا تحمل دلالات كثيرة، وتسعى إلى تحقيق أغراض متعددة، من إظهار للولاء أو طلب الصلح، أو إظهار الاحترام، أو الاحتقار.[7] وهي في كل ذلك تعد من الأركان الأساسية التي يهتم بها الحاكم أو المسؤول، ذلك " أن الهدايا لسان مهديها ولغته في التعبير عما في نفسه تجاه المرسل إليه. فقد قال بعض الحكماء ثلاث تدل على ثلاث: الهدية على المهدي، والكتاب على الكاتب، والرسول على المرسل".[8] وهذه العناصر الثلاثة تعد من أساسيات بناء الدولة، وبخاصة في العصور القديمة.

5– ونخلص مما سبق إلى أن الهدية والإهداء، تعد لغة ضمن الأنواع اللغوية المختلفة التي يستعملها الإنسان.[9] وهي قد تجمع داخلها أكثر من لغة حين تترافق الأشياء مع الرسائل المكتوبة، فتعمل كل لغة على تكميل اللغة الأخرى، وإثرائها، والعمل معا من اجل اصال رسائل صاحب الهدية على أحسن وجه وأبلغ تأثير في المرسل إليه، وهذا ما سنحلله في الجزء الثاني من البحث حين التعرض لإهداء الدكتور إحسان عباس لكتابه.

6– وقد تعددت المقاربات التي تناولت ظاهرة الإهداء والهبة، ولعل أكثرها عمقا وشمولا المقاربة الأنثروبولوجية التي وضع مارسل موس MARCEL.MAUSS أسسها في مقالة عن الهبة ESSAISUR LE DON والتي نشرها أول مرة في مجلة السنة الاجتماعية LANNEE SOCIOLOGIQUE .1923–1924. ثم نجد الدراسة المهمة التي قدمها موريس غودلييه MAURICE GODELIER بعنوان لغز الهبة AENIGME DU DON. وهي الدراسة التي نستفيد من جانبها النظري في استخلاص بعض الخطوط العريضة لظاهرة الهبة.

تنطلق المقاربة الأنثروبولوجية للهدية أو الهبة من حقيقة أولية في أن " المجتمع هو في جوهره تبادل أي لغة لأنه يستمد أصوله من عقد ".[10] ولذلك كان البحث عن الهبة جزء من البحث عن النماذج الأولية للعقود.[11] البدايات الأولى لظهور التبادلات والعقود الفردية.[12] وهذا ما عرفته أغلب الحضارات القديمة.[13] وفي ضوء هذه المقاربة المبنية على النظرة التواصلية للهبة والتي يتأسس عليها الفعل الإنساني فرديا كان ذلك الفعل أو جماعيا، فإنه يمكننا تحديد مجموعة من الخطوط العريضة التي يمكنها أن تحدد لنا الملامح الكبرى التي تتحكم في ظاهرة الهبة / الهدية. وهذه الخطوط يمكن ضبطها في النقاط التالية:

أ- تنطلق ظاهرة الهبة / الهدية من كونها عملية تبادل تتم داخل الجماعة البشرية، سواء بين أفراد، أو فرد وجماعة، أو جماعة وجماعة، وسواء تم ذلك داخل مجتمع بشري واحد، أو بين عدة مجتمعات مختلفة ذلك "أن المجتمع قائم على التبادل ولا يوجد إلا من خلال تركيب مختلف أشكال التبادل تبادل النساء (القرابة) والممتلكات (الاقتصاد) والتصورات والكلمات (الثقافة) "[14]

ب- إن فعل الوهب / الإهداء أساسه الإرادة الفردية أو الجماعية للواهب أو الواهبين، سواء أكان هذا الوهب/ الإهداء مبنيا على الالتماس أو عدم الالتماس، وبتعبير آخر: أجاء ذلك يطلب الملتقى أو برغبة خاصة للواهب. وهذا أمر يختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات. [15] وقد سجل الباحث الفرنسي مارسل موس " المفارقة الكامنة في مفهوم الأعطية، فهي إرادية بتعريفها وهي انطلاقا من ذلك مجانية ورغم ذلك تقوم سائر المجتمعات بإجبار أفرادها على ممارسة التبادل، فالهبة هي في نفس الوقت إرادية وإلزامية وهي تتميز بواحدة من صفات الحدث الاجتماعي بحسب تعريف دوركايم له: إنما مفروضة على الشخص فهي إذن إلزامية وكما يثقل إلزام العطاء على المعطى فإن المتلقي يكون هو الآخر ملزما بالقبول، ثم يرد هبة مقابل هبة ". [16] إن الإهداء يقوم على عنصر الشرف. [17]

جـ- وعلى الرغم من ارتباط الوهب / الإهداء بالسياق الثقافي للواهب، إلا أنه يبقى في أساسه الأول فعلا شخصيا، سواء أكانت هناك علاقة شخصية بين الواهب والمتلقي أو لم تكن. [18] ذلك أن الأشياء التي يهبها تعد امتدادا لنا، نتماها معها ونمنحها روحنا. [19] فالإنسان البدائي كان يعتقد بأن للأشياء روحا خاصة بها، ومن ثمة فإن هذه الأشياء ترتبط بصاحبها ارتباطا روحيا قويا. [20] والواهب حين يمنح هذه الأشياء لغيره فهو لا يتخلى ولا يتخلص منها.[21] ومن ثمة فهي ضرب من القرض الذي يستوجب إرجاعه لصاحبه[22] وعدم إرجاع هذا القرض إلى جانب كونه إخلال بالشرف وبالأخلاق فهو يسلب الشيء كل قدراته السحرية التي تمثل سلطته داخل الجماعة التي ينتمي إليها. [23]

د- وعلى ذكر العلاقة بين الواهب والملتقي، فإن وجودها السابق يعتبر شرطا أساسيا، سواء أكانت هذه العلاقة علاقة مباشرة تربط بينهما وفق سياقات خاصة تدخل في إطار العائلة أو الجيرة أو الزمالة. أو تكون علاقة غير مباشرة وفق سياقات عامة داخل النسق العام للعلاقات الاجتماعية للجماعة المعنية. [24]

هـ- وهذا العنصر الأخير يحيلنا على محاولة التعرف على الوظيفة أو الوظائف التي تمارسها الهبة / الهدية داخل الجماعة سواء بالنسبة للواهب أو الملتقي أو الجماعة بكاملها. والبحث في الوظائف التي تحققها الهبة / الهدية، داخل المجتمع يجعلنا نقع على مجموعة من هذه الوظائف التي تجدها تتضاد في بعض الحالات فيم بينها، وهذا أمر طبيعي في عالم البشر الذي لا يخضع لحتميات مطلقة، بل هناك الفروق الفردية المؤثرة حتى داخل الجماعة

البشرية الصغيرة جدا، مما يعطي للفعل الإنساني دلالات كثيرة ومتنوعة ومتضادة، ويمكننا تركيز أهم الوظائف في النقطتين الآتيتين :

أولا: يكون الوهب / الإهداء علاقة تكامل بين الواهب والملتقي ومن ثمة يعد عامل استقرار داخل الجماعة [25] فهو في الأصل عملية اقتسام.[26]

ثانيا: يكون الوهب / الإهداء، علاقة صراع بين الواهب والملتقي، وذلك من خلال محاولة الأول إظهار تفوقه على الثاني، وتكبيله بدين يجب رده [27] ومن هنا يتحول المتلقي إلى أسير. [28] يسعى إلى التخلص من هذا الأسر. فيصبح الوهب / الإهداء، عامل حرا داخل الجماعة، وقد يصل في حالات عديدة إلى نوع من الصراع المقنع والمدمر للعلاقات والموارد داخل هذه الجماعة .

وقد لخص لنا الباحث موريس غودولييه كل ذلك في قوله: " وهكذا يبدو الواهب وكأنه يقيم اختلافا وتفاوتا في المكانة بين الواهب والموهوب، وهو تفاوت يمكن أن يتحول في بعض الظروف إلى تراتبية ما، وإذا ما كانت هذه الأخيرة موجودة بينهما قبل الوهب. فإن الوهب يأتي تعبيرا عنها ومشرعا لها في آن معا . وبذلك يتضمن الفعل الواحد حركتين متعارضتين. فالوهب يقرب الشخصين باعتباره مشاركة . وهو يباعد بينهما اجتماعيا لأنه يجعل من أحدهما أسير فضل الآخر. وهكذا نرى حفل المناورات المدهش والاستراتيجيات الممكنة التي توجد بالقوة في ممارسة الهبة. وكذلك أيضا تشكيلة المصالح المتعارضة التي يمكن أن تخدمها. فالهبة – في جوهرها بالذات – ممارسة ذات حدين تجمع. أو يمكنها أن تجمع. أهواء أو قوة متناقضة، إذ يمكن لها أن تكون في آن معا أو على التوالي. فعل سخاء أو فعل إكراه غير أن الإكراه في هذه الحال هو إكراه برداء عمل غير مغرض على اعتبار أن ممارسة تتم عن طريق المشاركة وبصورتها ". [29]

7– أما فيما يخص إهداء الكتب فسنركز هنا على الدراسة الرائدة للناقد الفرنسي جيرار جينات GERARD GENETTE، وذلك في كتابه عتبات SEUILS، [30] وينطلق الباحث من التفريق بين معنيين لإهداء الكتب هما: إهداء نسخة الكتاب إلى شخص ما إهداء بدأ بيد، وهذه عملية كانت تتم في التراث العربي من خلال تسليم المؤلف لنسخة كتابه المخطوطة إلى الشخص الذي ألف من أجله ، سواء بطلب منه أو برغبة من الكاتب للتقرب منه وهذا الجانب لا يهمنا هنا لأنه لا ينطبق على الكتاب الذي ندرسه هنا. أما المعنى الثاني للإهداء فهو ما يكتبه المؤلف على كتابه ذاكرا المتلقي الذي من أجله وضع هذا الكتاب. [31] ويعبر عن هذه العملية بعبارة هي: FAIRE HOMMAGE D'UN LIVERE في الفرنسية تحمل عدة دلالات منها: إظهار الولاء والاحترام اتجاه شخص أو قيمة أو اتجاه الله سبحانه وتعالى .[32] ويكون الإهداء من حيث المكان الذي يشغله داخل الكتاب في الصفحة التالية لصفحة العنوان بصفة عامة، مع وجود استثناءات لهذه القاعدة. [33] أما من حيث زمن ظهور الإهداء، فهو في الأصل يرتبط بالطبعة الأولى الأصلية للكتاب، دون أن ينفي إمكانية استدراك المؤلف للإهداء لكن يمكن للمترجم اللاحقة. [34] أما صاحب الإهداء فهو في الأصل المؤلف لكن يمكن المترجم أو المحقق أو المشرف على جمع النصوص أن يقوم بدوره بالإهداء. [35] أما المتلقي فيمكن القيام بالإهداء إلى شخص أو جماعة واقعية أو مثالية أو إلى كائنات من نسق آخر مثل: الأفكار والقيم والأحداث. [36] فإذا ما عدنا إلى الأشخاص فنجد أن هذا الصنف ينقسم إلى قسمين هما:

أ- أشخاص خواص للواهب تربطه بهم علاقات خاصة داخل العائلة أو داخل جماعة العمل، أو الصداقة، وهم في الغالب غير معروفين للجمهور.

ب- أشخاص عموميين يعرفهم الجمهور، ويرتبط بهم المؤلف بعلاقة سياسية، أو ثقافية...[37]

أما بالنسبة للوظيفة التي يحققها الإهداء، فإنه يعكس لنا العلاقة الخالصة أو المتكلفة التي تقوم بين المؤلف والأشخاص أو الجماعات أو الكائنات الأخرى. [38]

الهوامش:

1- معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن زكريا- تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون- دار الفكر، د.ت، د.ط، ج6، ص42.

2- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، ج15، ص41.

3- تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية، عبد الغنى النابلسي تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار أسامة للنشر والترجمة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2003، ص.35

4- المرجع السابق، ص.37

5- المرجع السابق، ص.41

6- المرجع السابق، ص .38

7-ينظر: الهدايا والتحف زمن سلاطين المماليك البحرية 684-784هـ 1250م-1382م.د محاسن محمد الوقاد، حوليات كلية الآداب -جامعة عين شمي- مصر، المجلد الثامن والعشرين، ع2، 2000، ص162.

8- المرجع السابق، ص222.

9- المرجع السابق، ص223.

10- لغز الهبة، موريس غودولييه، ترجمة ، د. رضوان ظاظا، دار الهدى، دمشق، ط1، 1998، ص32.

-11 SEE. ESSAI SUR LE DON: M. MUSS. E.N.A.G. EDITIONS. ALGER. 1989. P6.

12- Ibid p X I I (PRESENTATION: HOURIA BEN BARKAT).

13- Ibid p 3.

14- لغز الهبة، مرجع سابق، ص12، وكذلك كتاب: إثنولوجيا انتروبولوجيا: فيلب لايورت تولدا وجان بيار فانييه، ترجمة ، د. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2004، ص304.

15- لغز الهبة، مرجع سابق، ص18.

16- إنثولوجيا انثروبولوجيا، مرجع سابق، ص301.

17- SEE. ESSAI SUR LE DON P 15.

18- ينظر: لغز الهبة، مرجع سابق، ص20.

19- ينظر المرجع سابق، ص ص 17- 18.

20- SEE. ESSAI SUR LE DON P18.

21- SEE. Ibid p 19.

22- SEE. Ibid p 65.

23- SEE. Ibid p 15.

24- ينظر لغز الهبة ، مرجع سابق، ص20.

25- ينظر المرجع السابق، ص19.

26- ينظر المرجع السابق، ص.12.

27- ينظر المرجع السابق، نفسه.

28- ينظر المرجع السابق، ص12.

29- المرجع السابق، ص19.

30-ينظر كتاب: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)ن عبد الحق بلعابد لدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2008، وهي دراسة تحليلية تلخيصية للكتاب.

31- SEE. SEUILS. GERERD GENETTE. CILLECTION POETIQUE SEUIL 1987, P110.

32- المنهل قاموس فرنسي-عربي، د. سهيل إدريس، دار الآداب بيروت، 2003، ص618.

33- SEE. SEUILS. OP.COT.P 118.

34- SEE. OP. CIT. P119.

35- SEE. OP. CIT. P121.

36- SEE. OP. CIT. P110.

37- SEE. OP. CIT. P123.

38- SEE. OP. CIT. P126.